تاريخ الدول السرياني

تأليف ابي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الاب اسحق ارملة السرياني

بعد القائم المقتدي ابنهُ

تولّى تسع عشرة سنة وخمسة اشهر . وفي السنة ٤٦٨ للعرب (١٠٧٥م) انتزعوا قلعة منبج الجديدة من الروم . وقد اقام الروم فيها ثماني سنوات لا يفتر العرب من محاصرتها حيناً فحيناً . وحدثت حرب شديدة عام ٤٦٩ للعرب (١٠٧٦ م) في سورية بين عساكر التركمان والمصريين . وتبع الحرب غلاء ووباء ولا سيّما في دمشق اذ هلك سكّانها كلّهم تقريباً . وكان مجموعهم فيما سبق ثلاثمائة الف نسمة فأمسوا ثلاثة آلاف نسمة فقط . وكان فيها مائتان واربعون خبّازًا فلم يبقَ فيها سوى خبّازَين لا غير . وبيعت الدار التي كانت قيمتها ثلاثة آلاف دينار بدينار واحد ولم يكن من يشتري . ولمّا صار فيها رخصٌ تفاقمت الغيران على الاهالي بسبب موت الحُنافس (٢٥٤) . وكان لامرأةٍ دمشقيّة داران اشترت الواحدة بثلاثمائة دينارٍ والثانية باربعمائة دينار . فباعت احداهما بسبعة دراهم فقط واشترت قطةً لتنجو من أذى الغيران .

وفي السنة ٤٧٠ للعرب وهي السنة ١٣٨٩ لليونان (١٠٧٨ م) اصبح ميخائيل الملك عاجزًا عن سياسة الدولة لما عرض له من داء الحصاة . فانزوى في البلاط وانصرف الى معالجة جسمه ولم يستطع ان يقابل احدًا . وشذَّ عن طاعته نيقيفور البستانيّ وكان هذا فلّاحاً ترقّى رويدًا رويدًا حتى تولّى جزيرة قبرس فانطاكية . ثم عُزل وغدا في دقماء الفاقة . فاتفق مع امير يتحدّر من الأسرة السلجوقيّة اسمه قتلميش ابن ينبو ارسلان بن سلجوق وكان قد فرَّ من وجه السلطان الب ارسلان ولاذ ببلاد الروم وحاصرا معاً قسطنطينية اربعة

اشهر حتى شمل القحط اهاليها وبيع رغيفا الخبز بدينار والدجاجة بدينار وخمس عشرة بيضةً بدينار . وتبع القحط وباء . وذكر رجل ممن يشيّعون الموتى الى مقبرة الكنيسة الكبرى ان تلك المقبرة ضاقت عن استيعابهم فجاروا يلقون الجثث في البحر من باب يشرف عليه ويقبضون عن كل ميت فلساً واحداً . قال : قبضتُ في هذه الاشهر الاربعة مائة وستين الف فلس . قلنا : ان كميّة كهذه وافرة غير قابلة التصديق . وقد نقلنا ما نقلنا عمّن سبقنا . على ان البطريرك والاعيان لمّا رأوا ان الملك ميخائيل عاجز عن مقاتلة المحاصرين فتحوا ابواب العاصمة وسلّموها الى نيقيفور فدخلها وسار اليه الملك ميخائيل مترجّلاً حاملاً التاج الملكيّ بيده وقال له : خذ التاج واكفف عن محاربة الاهالي بالسيف . فلو طلبته مني لاعطيتكهُ دون نزاع . فأمره نيقيفور ان يقص شعره ويذهب . وانقطع عن اكل اللحم فتعافى وقضى حياته زاهداً .

وحنق نيقيفور على ابنَي الملك ميخائيل فانتزع خصيتيها (٢٥٥) واقترن بامّهما . فاشمأزّ الاهالي جميعاً وغادرته النعمة وملكه الرعب فلزم البلاط ولم يخرج الى حرب البتة .

امّا السلطان ملكشاه فوجّه عبدَه برسوق في جيش لسيدّ قتليش . ولمّا شارف قسطنطينية ارسل يطلبه من نيقيفور . فقال له نيقيفور : ان ديننا لا يسمح لنا ان نسلّم من استجار بنا ولئن مُتنا كلّنا . وبعد هذا تبارز قتليش وبرسوق وباد الكثيرون من الاتراك من كلتا الجهتين . ثم ارسل برسوق يقول لقتليش : الى مَ هذا النزاع بيني وبينك ؟ هلمَّ نتصارع معاً فالذي يغلب صاحبه يتولّى امر الجميع . فوافقه قتليش . واحتال برسوق فألبس أحد عبيده ثوبه وسلاحه واركبه حصانه الخاصّ وسيّره ليبطش بقتليش وظلّ هو واقفاً مع عشرين فارساً كأنه يشرف على مسرح . فتطاعن الخصمان وحمل قتليش على العبد وجندله عن حصانه والخدر ليقطف رأسه . فبادر برسوق ووثب اليه هو ومن معه وأجهزوا عليه . ولم يرَ ان يعود الى السلطان الّا بالقليلين من اصحابه خوف ان يبطش به بسبب غدره بقتليش . امّا سائر الجيوش فقد انضمّوا الى سليمان بن قتليش وغادروا بلاد الروم وزحفوا عام ٤٧٥ للعرب

(١٠٨٢ م) الى بعض المدن الساحلية كانطرطس وطرسوس وفتحوها واحتل سليمان بعد ذلك انطاكية .

وفي السنة ٤٧٦ للعرب (١٠٨٣ م) احتلّ شرف الدولة بن قريش مدينة حرّان وفتك بقراصي صاحبها . وفي ٢٣ ايلول تلك السنة انتزع فيلردس الارمنيّ مدينة الرها من الاتراك . وسنأتي بعد هذا على ذكره قريباً (٣٥٦) .

امّا نيقيفور فقد اساء التصرّف في الرعيّة مدة سنتين حتى كاد يفضي بها الى الدمار . فعقد القائد الكسيس قمنينس سرّاً مع الاقطاب وانطلقوا الى مكان ملائم خارج العاصمة ونادوا به ملكاً . ثم عادوا الى المدينة مسرعين دون ان يعارضهم احد . ودخل الكسيس البلاط فغادره نيقيفور وعوقب حسب عمله وأشيع شتماً وسبّاً .

وفي السنة ٤٧٧ للعرب (١٠٨٤ م) كان ابن مروان متولّياً من الموصل حتى سواحل الفرات واتقاً بالعساكر المعدّيين لا يخضع كما يجب للسلطان ملكشاه . فارسل السلطان الى الامير ارتق ليحشد جنود التركمان ويتأهب للقتال . فسمع ابن مروان وأرسل الى شرف الدولة بن قريش امير المعدّيين الكبير يستنجده . فاحتشدوا وشارفوا آمد واقبل ارتق كذلك . ولمّا رأى شرف الدولة كثرة التركمان أرسل يقول لارتق : اني انا وابن مروان عبدان للسلطان فعلامَ هذا النزاع ؟ ارجو اذا ان تعودوا فأعود انا ايضاً ويتمّ الصلح بيننا . فوافق الامير ارتق لكن التركمان تذمّروا لانهم عائدون فارغين دون غنيمة يغتنمونها . وركبوا عند نصف الليل وحملوا على المعدّيين صباحاً وفتكوا بالكثيرين منهم وانهزم شرف الدولة مايوساً الى آمد ولاذ بابن مروان . وسار التركمان الى خيام المعدّيين واوثقوا النساء والفتيان واحتووا على ما فيها . ثم ربطوا اعناق الامراء المعدّيين ومضوا بهم نحو سور آمد وباعوا البعض بعشرة دنانير والبعض باقلّ من خمسة دنانير . وبيع الحصان العربي الجيد بخمسة دنانير والناقة بدينار والجحش بخمسة دراهم والخروف بنصف درهم . وحطّموا اكثر من عشرة آلاف رمح واحرقوها تحت القدور . ثم ثار نزاع ما بينهم (٣٥٧) فتركوا آمد وانصرفوا . وانطلق شرف الدولة الى الرقة .

وضعفت دولة الروم يومئذٍ اذ كان الاتراك يغزون بلادها في كلّ مكان. واجتمع زها. خمسين رجلًا من رجال الحرب الأرمن واصطلحوا على دخول البلاد وسلبها . ولمّا وصلوا الى مرعش صادفهم فتًى ارمنيّ اسمه فيلاردس اطّلعوا على دهائه وبطشه وشجاعته في الغزو والقتل فولّوه هدايتهم واقاموه زعيماً عليهم . وما عتم ان استفحل امرهم ونشروا يسلبون امكنة حصينة ببلاد قيليقية . فسمع ملك الروم وارسل الخلع الى فيلاردس فانطلق الى قسطنطينية ورحّب به اليونان وجادوا عليه بالذهب والسلاح ورقّوه الى رتبة سبسطس . فخرج واحتلّ قيليقية وانطاكية ثم احتلّ كذلك مرعش والكيسوم ورعبان والرها وجيحان وملطية. وانضمّ الى اصحابه الارمن رجالٌ من العجم والاتراك. واسترسل في الظلم والعتوّ حتى قبض على زعماء انطاكية واغتصبهم اموالهم ووزّعها على عساكره . فأبغضه الانطاكيّون بغضاً شديداً وولّوا عليهم حاكماً فارسيًّا يقال له اسمعيل فغادرها فيلاردس وانصرف .

وسمع سليمان بن قتلميش الذي قُتل ابوه في العاصمة كما ذكرنا أن فيلاردس انتزح عن انطاكية فجهّز السفن وزحف من انطرطس وطرسوس الى انطاكية من جهة الجبل واحتلّها بمساعدة حاكمها اسمعيل المذكور . وفتح كنيسة القيامة الكبرى واحتوى على امتعتها وآنيتها الذهبيّة والفضيّة وعلى ما اهداه اليها الانطاكيون من التحف الوافرة وحوّلها الى مسجد . ونادى بالأمان في المدينة وحرّم على الاتراك الضرب بالسيف ودخول ايّ بيت من بيوت المسيحيين ومصاهرة بناتهم على الاطلاق . وفرض عليهم ان يبيعوا كلّ ما غنموه من الانطاكيين في (٢٥٨) انطاكية عينها وبثمنٍ بخس . وهكذا طيّب قلوب الاهالي وولّى الحاكم حراسة القلعة . فاستراح الانطاكيّون وتمتعوا بالطمأنينة اكثر من ايام فيلاردس النصرانيّ بالاسم .

وزحف سليمان كذلك الى بلاد الروم واحتلّ نيقية ونيقومدية وقونية واقام بها ابنه قلج ارسلان وعاد الى انطاكية . اما سبسطية وقيسارية والبنطس فقد تولّاها في تشرين الثاني ١٠٧٧ للعرب و١٣٩٦ لليونان. (١٠٨٥ م) الامير اسمعيل بن دنشمند وسُمّيَ ذلك المكان باسمه حتى يومنا .

وفي السنة المذكورة انتزع شرف الدولة من الارمن سميساط وسبى خال ابن قتلميش التركيّ بلد ملطية .

وفي السنة ٤٧٨ للعرب (١٠٨٦ م) حشد سيف الدولة الجنود المعدّيين وسار الى انطاكية فبارزه سليمان بن قتلميش وأجهز على اصحابه وفتك به .

امّا الامير ارتق الذي ذكرنا انتصاره على المعدّيين في آمد فلمّا أحسّ انقلاب السلطان ملكشاه عليه ارتحل في جيشه الى سورية . ولمّا وصل الى الموصل وجّه اليه السلطان شخصين من زعمائه في ثياب ملكيّة وحصانٍ وفرمان بخمسة آلاف دينار ليستميله اليه . لكنه أبى وقال : ان في خدمة السلطان خصماً لي لا يدعه ان يُخلص لي المودّة . وهٰذا قاصدٌ سليمان بن قتلميش كي أنهيه عن التعرّض لبلاد السلطان . فوافقه الزعيمان وعادا راجعَين .

وفي هذه السنة استفحل الوباء في العجم وفي سنعار وسورية . واقفرت من السكّان قرى كثيرة . وكان اذا وقف الشخص هنيهة اخذته القشعريرة فسقط ميتاً . ولم يمهل الداء فتكه بكائن من كان اكثر من ستة أيّام (٢٥٩) . وأخبر احد الحمّالة الاتراك قال : مررتُ بباب بيت في قرية موحول بجانب بغداد فأبصرتُ فتاةً تبكي وتقول : من ينقذني من الموت ويأخذني ؟ فقد دخل الوباء بيتنا وأتلف ابي وامّي واخوتي واخواتي . فدخلتُ واحصيتُ هناك تسعة موتى وخفتُ وخرجت . ثم تعطفتُ على تلك الفتاة وعدتُ لأنقذها فلحتُها ساقطةً على حضن امّها ميتةً .

وفي ٢٧ ايلول ١٣٩٦ لليونان (١٠٨٥ م) عصفت ريحٌ سوداء في بغداد واكفهرّ الجوّ وارتفع غبار كثيف في الفضاء وسار مثل جبلٍ ضخمٍ . وهلك كثير من البشر والبهائم وحيوان القفر . ودخل المشعوذون الحمّامات وخطفوا ما فيها من ألبسةٍ ونهبوا الاسواق . وغرقت سفن كثيرة . .

وفي السنة ٤٧٩ للعرب (١٠٨٦ م) نشبت حرب بين الامير ارتق بك وبين سليمان بن قتلميش صاحب انطاكية وقُتل سليمان في تلك الحرب . قيل انه لمّا شاهد انكسار اصحابه انتحر بالسكّين وشوهد مجندلاً والسكين مغروسة في بطنه . ولمّا سمع السلطان ارتحل من خراسان الى سورية وسار

الامير ارتق الى اورشليم ووضع عياله واموالهُ في برج داود وتحصَّن به . ولمَّا وصل السلطان الى الرها وصاحبها يومئذٍ فيلردس سلَّمه اياها الاهالي بسهولة . على ان فيلردس سبق فعرف ما يضمره له الرهاويّون من الغدر . فسار الى خراسان ليقابل السلطان لكنَّ السلطان لم يشاهده اذ كان قادماً في طريق اخرى . وبعد ما احتلَّ الرها اقبل فيلردس ووعده بتأدية الجزية والمناداة باسم الخليفة والسلطان . وما عتم ان مرق من دينه وأسلم على يد السلطان واختتن وانتابه المرض وجعل يطوف مع عساكر السلطان في رحلاتهم . وظلَّ الرهاويّون حاقدين عليه (٢٦٠) فأعطاه السلطان مرعش بدلاً من الرها فذهب اليها ومكث بها زماناً حتى مات تعساً . قيل انه عاد فتنصَّر وآمن بالمسيح ومات .

وسار السلطان من الرها الى قلعة جعبر وفيها جمهور من اللصوص خرجوا الى مقاتلة الاتراك . فتسلَّق السور ثلاثة اتراك من جانب لا يتبادر الى ظنّ احد ان هناك مكاناً للتسلُّق . ونادوا باسم السلطان . فدهش اولئك اللصوص واستحوذ عليهم الرعب وارتخت عزائمهم . فقبض عليهم الاتراك وفتكوا بجعبر زعيمهم . وهبطت امرأة شجاعة من السور وتغافلت الربح في ردائها حتى وصلت الى الارض دون أذى . وذهبوا بها الى السلطان فسألها : علامَ صنعتِ هكذا ؟ قالت فضَّلتُ الموت على ان يمسَّني احد غير زوجي . فسألها : من أين انتِ ؟ قالت : انا دمشقيّة . فأمر ان يعيدوا بها الى أهلها سالمةً .

وارتحل السلطان من هناك الى حلب وانطاكية واحتلَّها . وعاد الى بغداد بسبب اشتداد الغلاء والجوع في سوريّة . وزفَّ ابنته الى الخليفة . ثم استأنف السير الى خراسان . واستعمل الامير بوزان على الرها وعلى ملطية والامير آقسنقور على حلب .

وفي السنة ٤٨٥ للعرب (١٠٩٢ م) غادر السلطان خراسان الى بغداد . وحصل خلاف بينه وبين الخليفة . ذلك انه سأل الخليفة ان يخلفه ابنُهُ الذي ولدته زوجتهُ ابنة السلطان فتسنَّع . فارسل السلطان يقول له : يجب ان تغادر بغداد . فقال الخليفة : اني ممتثل أمرك فتمهَّل عليَّ عشرة ايَّام ريثما اتهيَّأ للرحيل . وفي اليوم التاسع ادركت السلطان حمّى محرقة قضت على حياته .

وقيل ان عبده كردبك سقاه سما فمات . وكانت امرأته تُركان خاتون رزينة عاقلة فاستحوذت على شؤون الدولة ونادوا بابنها محمود بن (٢٦١) ملكشاه سلطاناً في بغداد وهو في الخامسة من سنيه ووصف بعضهم رزانته فقال : ارسل الخليفة ووشّحه ببزة ملكيّة واجلسه على العرش . فلم يمدّ يده ولا رجله ولم يغمض عينيه ولم يتحرّك ولم يتكئ بل ظلّ هامدًا كالصخر حتى أدهش الحاضرين . وبعد هذا اخذت تُركان خاتون ابنها السلطان محمودًا وانطلقت الى اصفهان. فاحتشد بعض الاتراك وأحضروا تركيارُق ابن السلطان ملكشاه وكانت امه ابنة عمّه وبايعوه بالسلطنة . وانضمّ اليه عشرة آلاف من الجند والى محمود اخيه عشرون الفاً. ولمّا التقى الفريقان غدر بمحمود اصحابُه وانضمّوا الى جيش تركيارق واصبحوا معه .

وتولّى تاج الدولة تتش اخو السلطان ملكشاه الموصل ونصيبين وميافرقين وسورية ودمشق . ثم توجّه الى اذربيجان وخرج الى استقباله السلطان تركيارق ابن اخيه ورحّب به في قرية سعد آباد بتبريز . ثم عاد تتش الى دمشق . وظلّ آقسنقور وبوزان الاميران خاضعين للسلطان تركيارق . ثم سار تركيارق الى بغداد فرحّب به الخليفة ووشّحه بحلّة ملكيّة وكتب له فرمانًا ونادى باسمه سلطانًا .

وفي السنة ٤٨٧ للعرب (١٠٩٤ م) اذ كان الخليفة المقتدي على مائدته يتغدّى دجاجةً مشويّةً غُشِيَ عليه فقال للجارية الواقفة امامه : مَن هم هولا. الداخلون دون رخصة ؟ فالتفتت الى ورائها ولم تشاهد احدًا . ثم عادت فرأته قد استلقى على ظهره ميتًا قبل ان يغسل يديه . هكذا مات الخليفة بغتةً وخلفه ابنه المستظهر .

بعد المقتدي المستظهر ابنهُ

تولّى الخلافة خمسًا وعشرين سنة وخمسة اشهر . وفي هذه السنة توفّيت تركان خاتون ام السلطان محمود . وكانت شجاعةً حكيمة (٢٦٢) يتّصل نسبُها بافدا سياب رأس الملوك الهونيّين . وابوها طغراج ملك الخزر . ولم يبقَ

لابنها الّا اصفهان فقط . وبعد قليل سار السلطان تركيارق الى اصفهان في شرذمةٍ من جنوده فاغلق زعماء اخيه السلطان محمود الابواب في وجهه . ثم نووا ان يُدخلوه ويقبضوا عليه . ولمّا فتحوا وادخلوه اقام يوماً واحدًا فانتابت اخاه محمودًا حمّى حادّة قضت عليه في اليوم عينه وهو في السابعة من سنه . فاتفق الزعماء مع تركيارق وملّكوه اصفهان كذلك .

وفي السنة ٤٨٨ للعرب وهي السنة ١٤٠٦ لليونان (١٠٩٥م) اقبل قلج ارسلان بن سليمان سلطان قونية الى ملطية وحاصرها . وارسل احد الزعماء بثابة سفير ليحادث مطران المدينة سعيد بن صابوني الذي دُعي صاحب السدرات. وكان رجلًا قديساً وملفاناً خبيرًا . فكلّمه الزعيم بحضور جبرائيل اليوناني صاحب المدينة باللغة اليونانيّة وقال : ان السلطان يريد ان تسلّموه المدينة فيُحسن معاملتكم والّا فسيأخذها بالسيف وسيطالبكم الله تعالى بدمكم ودماء الاهالي جميعاً . فقال له المطران : لا تهذر فان مدينتنا لا يستطيع احد ان يدوّخها بعونه تعالى . لان فيها خبزًا يكفيها اكثر من عشر سنوات ومياها تجري وتخرج منها . وفيها رجال حرب كثيرون مثلما تشاهدون . ولمّا كان المطران يحدّث الزعيم كان جبرائيل اللعين واقفاً وراءه ينصت لكلامه . ولمّا انطلق الزعيم قال المطران لجبرائيل : لقد اصغيتَ يا مولاي الى ما قلتهُ . فالخليق بنا ان نرحّل السلطان عنا بكلمات طيّبة وهدايا موافقة . وانت ترى ما يعاني الاغنياء والفقراء من الضيق (٢٦٣) . فغضّ اللعين على المطران وأمر في الغد بقتل احد الضبّاط . فسمع المطران وسارع الى جبرائيل يتوسّل اليه بشأن الضابط وقد شاهده راكباً حصانه ما بين سوري المدينة . غير ان اللعين سخط على المطران وشتمه وانقضّ عليه وضربه بسيفٍ كان بيده وأجهز عليه. ولم يتيسّر للمؤمنين ان يشيّعوه ويدفنوه في الكنيسة الّا بعد يومين . امّا السلطان فلمّا بلغه قدوم الفرنج تركَ ملطية وانصرف راجعاً.

وفي السنة ٤٨٩ للعرب وهي السنة ١٤٠٧ لليونان (١٠٩٦م) قدّر المنجّمون حدوث طوفان كطوفان ايام نوح . فاستدعى الخليفة المستظهر ابن عيسون المنجّم واستطلعه طلع الخبر فقال : ان الكواكب السبعة السيّارة اجتمعت

ببرج الاسماك في عهد نوح فحدث ذلك الطوفان العرمرم . غير انه في هذه السنة لا اثر لزحل في ذلك البرج فلو كان مع تلك الكواكب لحدث فيما اظن طوفان نظير ذلك الطوفان . ولكنه ستحتشد جماهير غفيرة في مكان ما وسيجرفهم الغمر ويغرقهم قاطبة . وما عمّ ان وصل الخبر بان الزوّار القاصدين الحجّ في مكّة باغتهم سيل جارف واغرقهم جميعاً .

وفي هذه السنة حمل جبرائيل اليوناني صاحب ملطية على ابي سالم الرئيس القويم الايمان صهر آل عمران وسقاه سمّاً أودى بحياته . ثم أجهز اللعين عينه على التجّار المؤمنين الاتقياء وهم برصوما ابن الراهبة وابنته وباسيل حرًّا وسهدو شمّاس طانطيني وابترّ من بيوتهم ومن بيت ابي منصور بن ملكا ذهباً وفضة وبضائع . وانتزع من كنيسة المطران صلباناً ومباخر وقنينة ميرون وغير ذلك من الاثاث واخرب الدور وابتنى القلعة والسور .

(بدء الحرب الصليبية)

وفي السنة ١٤٠٨ لليونان (١٠٩٧ م) برز ملكان فرنجيان وسبعة قامصة واقبلوا الى انطاكية وانتزعوها (٢٦٤) من يد الاتراك . وسبب قدومهم ان التركمان بعد ما احتلّوا سورية وفلسطين وغيرهما من البلاد جعلوا يعاملون اغلظ معاملة جمهور المسيحيين القادمين ليصلّوا في اورشليم ولا سيّما الحجّاج الموافين من ايطالية واصقاعها . لذلك تحمّسوا وحشدوا الجنود وتوجّهوا اوّل بدء الى اسبانيا واحتلّوا مدنها واراقوا دماء الكثيرين من العرب وبتروا آذانهم ومناخيرهم وشفاههم وسلوا أعينهم . ثم زحفوا الى قسطنطينية فلم يسمح لهم الكسيس ملك اليونان ان يمرّوا من هناك . فظلّوا يحاصرون العاصمة سبع سنوات ثم خرجوا واقبلوا الى انطاكية واحاطوا بها تسعة شهور ولم يقووا على أخذها . وبعد هذا تعاقدوا سرًّا مع رزباه الفارسي حارس البرج الذي بجانب مخاضة كشكروف ووعدوه بذهب . وكان ذلك البرج مؤسساً على قضبان حديديّة فاقبلوا ليلاً ودخلوه وتسلّق بعضهم السور بالحبال . ولمّا ازداد عددهم هتفوا بالابواق في الهزيع الاخير من الليل . فاستيقظ جيفان الحاكم التركي ظانّاً ان

الفرنج احتلوا القلعة واضطرب كل الاضطراب وفتح باب المدينة وانهزم في طريق حلب مع ثلاثين رجلاً . ولما أصبح جعل يعضّ انامله ندماً ويقول : كيف تركت المدينة واهلي واولادي واموالي وخرجتُ ؟ وجعل يلتفت نحو انطاكية ويبكي . ولشدّة كمده سقط عن حصانه فاركبه اصحابه غير مرّة فسقط فتركوه وانصرفوا . واقبل رجل ارمنيّ كان يقطع حطباً في الجبل فوثب اليه وفلق هامته ومضى بها الى الفرنج .

هكذا احتلّ الفرنج انطاكية ونهبوا مَن فيها من عربٍ واتراكٍ وفتكوا بكثيرين منهم وولّوا عليها بوهيمند (٢٦٥) احد قامصتهم وظلّوا ثلاثة عشر يوماً لا يظفرون بما يأكلون حتى أكل الكثيرون لحم خيلهم . ولمّا بلغ الامر السلطان تركيارق سيّر الى انطاكية مائة الف فارس فوصلوا الى بغراس وحطّوا رحالهم هناك .

ورأى احد ملوك الفرنج حلماً فحفروا موضعاً في بيعة القسيان عثروا فيه على مسامير صليب ربنا يسوع فصاغوا منها صليباً وسنان رمحٍ واتخذوهما بثابة رايــة وزحفوا الى الاتراك . فمنحهم الربّ الغلبة حتى ملأوا الارض من جثث القتلى .

وبعد هذا ساروا الى المعرّة واحتلّوها وفتكوا باكثر من مائة الف نسمة بها وظلّوا اربعين يوماً واحتووا على غنيمة وافرة . ثم توجّهوا الى جبل لبنان وفتكوا بخلقٍ كثيرٍ من النصيريّة . ثم اقبلوا الى عرقة بجانب طرابلس وحاربوها اربعة اشهر فامتنعت عليهم . فغادروها الى شيزر فأطاعهم صاحبها ابن منقذ العربيّ وأدّى لهم الجزية فتركوه وانتقلوا الى حمص فخرج جناح الدولة صاحبها الى لقائهم وادّى لهم الخضوع فتركوه وساروا الى اورشليم وبها افتخار الدولة من قبل المصريين وحاصروها اكثر من اربعين يوماً وابتنوا برجين خشبيّين الواحد من الناحية الجنوبيّة بصهيون والثاني عند باب مار اسطفانس الشرقيّ : وألقى العرب النيران ببرج صهيون وما كاد ينتهي الحريق حتى وقعت صيحة بان الفرنج دخلوا من الناحية الشرقيّة . ثم وضعوا السيف في الاهالي اسبوعاً كاملاً . وقتلوا في هيكل سليمان اكثر من سبعين الفاً من العرب .

وانتزعوا من عند الصخرة اربعين قنديلاً فضيَّة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم . وأخذوا كذلك مائة وخمسين من القناديل الصغيرة بينها عشرون قنديلاً من الذهب المصريّ . وأخذوا كذلك (٢٦٦) منارةً فضيَّة وزنها اربعون رطلاً سوريًّا يساوي كلّ رطل ستَّة ارطال بغداديَّة . الى غير ذلك من الاواني والزخارف الوافرة . واول من ملك اورشليم غودفروا عام ١٤٠٩ لليونان (١٠٩٨ م) تولَّى سنتَين وتوفي وخلفه بغدوين سبع عشرة سنة .

ولمَّا درى المصريّون بما جرى زحف الافضل ابن القائد الكبير في جيش كثيف ولاقاه الفرنج عند عسقلان وانتصروا عليه وفتكوا بعدد جمّ من رجاله . وسار الفرنج بعد ذلك الى عسقلان فدفع لهم الاهالي اثني عشر الف دينار فتركوهم وعادوا الى اورشليم .

وفي السنة ٤٩٢ للعرب (١٠٩٨ م) انتقض على السلطان تركيارق اقطاب الاتراك يحاولون الانتقام من الوزير مجد الدولة لانه كان ينتهم ويشدّد عليهم . فبطشوا به واغمضوا عن تركيارق وقصدوا محمدًا اخاه وبايعوه بالسلطنة . ووافق الخليفة عليه وكتب له فرمان الرضى وسُمّيَ غياث الدنيا والدين ابا شجاع محمدًا . وفرَّ تركيارق الى بغداد وتتبَّع اخاه محمدًا . والتقى الجيشان غير مرة ينتصران وينكسران .

وفي السنة ٤٩٣ للعرب (١٠٩٩ م) مات يحيى الطبيب البغداديّ ابن جزلة مؤلف كتاب المنهاج الشهير الذي تتداوله ايدي اطبَّاء عصرنا . ينطوي على الادوية والاغذية البسيطة والمركَّبة . وكان نصرانيًّا قرأ المنطق على ابي عليّ ابن الوليد . فموَّه له ابو عليّ السفسطيّ ان الاتحاد الحبّي والاقنوميّ على زعم النساطرة لا يتيسَّر تصوره في الطبع الالهيّ . وهكذا حسَّن له الاسلام فأسلم وكان يحيى غنيًّا ولم يَعُد مريضاً بغير عوض (٢٦٧) الَّا اصدقاءه المرضى فقط .

وكان الامير ابن دنشمند يلحّ على جبرائيل اليوناني صاحب ملطية في الطلب ويُقبل في اثنا الصيف من سبسطية ويعيث في البلد ويأكل غلاله وينصرف في الشتا . فكتب جبرائيل الى الفرنج وحلف لهم ثلاثاً بانه يسلّمهم المدينة . فوثقوا بكلامه وسار الملك بوهيمند مطمئنًّا ليحتلها .

وكان فريق من الارمن منذ ايام فيلاردس يتولون بعض امكنة منهم كرع باسيل اغي اللصّ صاحب الكيسوم ورعبان . وابناء روفين اصحاب بعض نواحي ارمينية . فهؤلاء خشوا ان يستولي الفرنج عليهم ويخرجوهم من نواحيهم فكتبوا سرًا الى اسميل بن دنشمند ليكمن لهم . اما جبرائيل الملعون فلمّا وصل بوهيمند الى قرية جفنة فوق ملطية جعل يعلله ويؤجله من يوم الى يوم ريثما وصل ابن دنشمند واقام الكمناء تجاهه ثم قبض عليه وبعثه الى سبسطية واقبل هو الى ملطية وشدّد عليها . وظلّ جبرائيل الاثيم يسترسل في شروره وينهب الاهالي دون رحمة حتى سخط عليه ضابطان ودفعا المدينة الى الاتراك يوم الاربعاء ١٨ ايلول ١٤١٣ لليونان (١١٠٢ م) وفي النسخ العربيّة عام ١٤١٢ لليونان (١١٠١ م) .

دخل الاتراك ملطية المنكودة الحظّ وانتهبوا ثروتها برمّتها ورخّص ابن دنشمند لجنوده ان يضعوا الايدي على اموالها دون اهاليها اذ دافع عنهم كأنهم خاصّته وردّهم الى بيوتهم ولم يُقتل احد منهم . ونقل من بلده حنطةً وثيراناً وحاجيات أخرى ووزعها عليهم . ورتع الملطيّون في بحابح المعيشة في ايامه . واستعمل على المدينة رجلًا عادلًا تقيًّا اسمه باسيل وارتحل .

امّا جبرائيل فقد غضب الله العادل عليه فأخذ الاتراك يزلون به أفدح الاعذبة . وطالما ذكّره النصارى بساوئه وتعدّيه على المطران البارّ وعلى الزعماء المظلومين وفتكه بهم . وبعدما (٢٦٨) أشبعوه شتماً سار به الاتراك الى قلعة قطيعة حيث كانت امرأته . وأمروه ان يبلّغها لتسلّمهم اياها . غير انه ظلّ يراوغهم فقال لها : سلّمي القلعة وهذه لكِ اشارة منّي : اني قبل ايام ارسلتُ اليكِ فتى اسمه ميداس . وميداس لفظ ارمنيّ يراد به لا تسلّمي . وما ان اطّلع الاتراك على الحقيقة حتى بطشوا به وألقوه للكلاب .

واستدعى ابن دنشمند الى ملطية بوهيمند ملك الفرنج وأطلقه بمائة الف دينار فعاد الى انطاكية وتخلّى عنها لابن أخته وقفل راجعاً الى وطنه .

وفي السنة ١٤١٤ لليونان (١١٠٣ م) كان سان جيل في طرسوس وبلغ العربَ ان جنوده قليلون فاجمعوا على مبارزته واقبلوا من طرابلس ودمشق وحمص

ولم يكن مع سان جيل الا ثلاثمائة فارس لا غير وجه المائة منهم نحو الدمشقة والمائة نحو الطرابلسيين والخمسين نحو الحمصيين وأبقى الخمسين لمؤازرته . ولما التقى الصفان لاذ الحمصيون والدمشقيون بالفرار نحو الجبال وكانوا اكثر من خمسة آلاف وظل الطرابلسيون وهم ثلاثة آلاف فشد عليهم سان جيل في من معه وهم خمسون وطحطحهم وتتبع المنهزمين وقتل من العرب نحو سبعة آلاف وغادر قيليقية الى طرابلس وشد عليها واحتل انطرطس وفتك بكل من بها من العرب . ودوخ عدة قلاع . واقبل يومئذ قمص آخر في البحر وحاصر عكة وضيق على اهاليها . واحتل الفرنج الرها وصاروا يسبون وينهبون ما في حوزة العرب من البلاد السورية .

وفي السنة ٤٩٨ للعرب (١١٠٤ م) تفاقمت على السلطان ركن الدين تركيارق (٢٦٩) امراض مختلفة كالسل والبواسير وغيرها من العاهات فأحس الموت واستحلف الاقطاب بشأن ابنه ملكشاه الصغير ووجهه الى بغداد . ونودي باسمه جلال الدين ملكشاه وهو في ربيعه الرابع . وتوفي تركيارق ابوه ودفن في اصفهان . ولما كان في بغداد وافى عمه السلطان محمد فاضطرب البغداديون جدا وتخوفوا ان يحدث خلاف بين السلطانين ويستهدفوا للسبي والنهب . وكان الامير اياز وصي الملك ملكشاه متصفاً بالفطنة ومتولياً قيادة جيوش تركيارق وهي خاضعة له ومؤتمرة بأمره . فقصد السلطان محمداً واستحلفه وقال له : ان هذا الفتى هو ابن اخيك فيجب ان تعتني به كل الاعتناء . وتوطده في ملك أبيه وإرثه اكثر مني . فقال السلطان : ان ملكشاه هو ابني . ووعده خيراً فودعه الامير اياز وزار السلطان ملكشاه فرحب به كل الترحيب : وفي الغد اعد الامير مأدبة وسأل السلطان ان يحضرها فلبى وذهب . واتفق لو الطالع ان حضر كاتب متنطق بدرع تحت ثيابه وهو واقف يخدم لا يتحرك الا متثاقلا . فتفرس فيه السلطان واشار الى عبد صغير ممن كانوا واقفين ان يذهب ويتجسسه وينظر ما به وما سبب تعثره في ذهابه وايابه . فذهب الخادم وجسه كمن يلاعبه ثم عاد واخبر السلطان بانه متنطق بدرع ضمن قميصه . فقال السلطان ما زال الكتاب يتدرعون فما قولنا عن الفرسان الاتراك ؟ وغاب على

ظنه ان اياز يضمر له الغدر فأمر سيافاً واقفاً امامه ان يغلق هامته. وسمع الاتراك اصحاب اياز فأخذوا ما تيسّر من مالهم ومن مال غيرهم وانهزموا الى سورية.

وفي اذار ٤٤٩ للعرب وهي السنة ١٤١٧ لليونان (٤٧٠) (١١٠٥ م) فاضت الانهار ولا سيّما الفرات واخرب دوراً كثيرة في بغداد. وبلغت المياه شرفات دار رجل غنيّ حتى كادت تغمرها فأعدّ سفينتين ملأهما امواله ونساءه واولاده وجواريه. وأمر الملاحين ان يمضوا بهم الى مكان عالٍ. وما ان عبروا قليلاً حتى غرقت احدى السفينتين وكان فيها تسع جوارٍ غاليات الثمن وفتاةٌ هزمتها امواجٌ معهنّ فاختنقنَ جميعاً وغرق كل ما معهنّ من الامتعة. امّا السفينة الثانية فلمّا شاهد الذين فيها ما جرى عادوا الى دارهم. وصباح الغد قلّت المياه فأدّى الشكر لله تعالى جميع الناس ومجّدوا احكامه غير المدركة وعرفوا ان خلاص البشر دونه تعالى باطلٌ.

وفي هذه السنة مات في سبسطية دنشمند وتولّى ملطية سنتين. فاقبل بعد ذلك قلج ارسلان وحاصرها في ٢٨ حزيران واقام المنجنيقات على البرج المدوّر شرقي شمالي المدينة واحتلّها بقسم وليس بالسيف ذلك بعد معارك طاحنة. وتمّ ذلك في ٢ ايلول ١٤١٧ لليونان (١١٠٦ م) ولم يُلحق أذى باحد من الاهالي منذ تولّى أمرها.

وفي السنة ٥٠٠ للعرب (١١٠٦ م) كان جكرميش الامير التركيّ متولّيا الموصل فانتوى الخروج على السلطان محمد. امّا السلطان فأعدّ الامير جاولي التركيّ وولّاه مكان جكرميش وأنجده بجيش كافٍ. وما ان انتهى الى اربيل حتى حشد جكرميش عساكره وزحف اليه فقهره جاولي واعتقله. فحالف المواصلة زنكي بن جكرميش وتأهبوا لمنازلة جاولي وأرسلوا الى قلج ارسلان ابن سليمان بن قتلميش سلطان قونية يستنجدونه: امّا جاولي فدخل الموصل وجكرميش في قبضته مأسوراً وحفر جبّاً هناك ودلّاه فيه خيفة ان يسرقه الاهالي وفيه قضى انفاسه (٢٧١).

وكان ابو طالب بن كُبيرات الموصليّ في وقعة جكرميش وهرب الى اربيل. فارسل جاولي يطلب من ابن موسك صاحبها ليرسله اليه فلبّى طلبه.

وبعث جاولي الى صاحب اربيل ابنه وكان مأسورًا عنده . ولمّا وافى ابن كسيرات ليزور جاولي وعده بان يسلّمه الموصل ويجمع له كميّة من الذهب ممن يعرفه هو . فتحفّى له جاولي واكرمه . غير ان ابن ودعان قاضي الموصل وكانت العداوة متأصلة بينه وبين ابن كسيرات أرسل الى جاولي يعده بتسليم المدينة على شرط ان يفتك بخصمه فنفّذ جاولي شرطه وبعث اليه برأس عدوّه . فاغتاظ اتراك الموصل ووثبوا الى ابن ودعان وبطشوا به وجوزي في ايّام معدودة شرًّا بشرّ .

وشخص يومئذٍ قلج ارسلان من بلاد الروم الى جزيرة قردو ففرّ جاولي الى مدينة بلد وغزاها ثم انتقل الى سوريّة . ووصل قلج ارسلان الى الموصل واحتلّها دون مناهضة . وتساهل مع زنكي بن جكرميش ومع اصحابه ولم يَمسّ احدًا باذًى . وأمر ان كلّ من رافع احدًا لديه افتراء فتك به فتكًا . ثم ردّ القاضي عبيد الله بن القاسم الشهرزوريّ الى منصبه . وأبطل المناداة في الموصل باسم السلطان محمّد فجعلوا ينادون باسم قلج ارسلان بعد الخليفة . واقام في القلعة محافظًا اسمه بزميش . ونادى باسم ابنه ملكشاه ملكًا وهو في السنّ الحادية عشرة . واقامه هناك مع امّه في البلاط وارتحل الى الخابور في خمسة آلاف فارس .

اما الامير جاولي فاتفق مع رضوان صاحب حلب وحشد اربعة الاف فارس من الشجعان الاقوياء وزحف بهم الى الخابور . وانتشبت الملحمة بينه وبين قلج ارسلان . وقد ابدى هذا بسالة عجيبة غريبة اذ خرق صفوف (٢٧٢) جاولي وضرب يد حامل الراية وبترها وضرب جاولي نفسه بالسيف الّا ان درعه حفظه سالمًا . على ان اصحاب جاولي ورضوان لمّا شاهدوا قلج ارسلان مستبسلًا دون اصحابه كرّوا عليهم ومزقوهم شرّ ممزّق . فاضطرب قلج ارسلان على حياته اذ بقي وحده واعتقد انهم ان عفوا عنه واعتقلوه ومضوا به الى السلطان فلن يتركه في قيد الحياة ولا سيما لانه ألغى المناداة باسمه في الموصل . بناء عليه القى نفسه وهو راكب حصانه في نهر الخابور يطعن بنشابه كل من لحقه في الماء . وكان درعه الحديدي ضخمًا فاستثقله هو وحصانه وظل يجاهد برشق نشابه

حتى تعثر الحصان في محل عميق وغرقا كلاهما . وبعد ايام لفظته الميـاه الى الشاطئ واقبل البعض فنقلوه ودفنوه في الشمسانية .

وسار رضوان الى اطراف الرقة وانقلب جاولي الى الموصل وفتح له العامّة ابوابها فدخلها وقبض على احد حجّاب جكرميش واستترف منه اربعين الف دينار ذهباً . وبعث الى بزميش ليسلّمه القلعة ويردّ كل ما اصابه من المواصلة وكلّ ما عنده ويرحل سالماً الى بلده . فلم يَرَ ان يعارضه ولا سيما لان موت قلج ارسلان مولاه خيّب آماله . فانحدر فوراً من القلعة واخذ امرأة قلج ارسلان وجميع اهلها واهله وانطلق الى ملطية . اما ملكشاه ابن قلج ارسلان فكان جاولي قد سبق فسيّره الى السلطان . وبعـد هذا انطلق جاولي الى الجزيرة وضغط على اهاليها فدفع له حباشي بن جكرميش ستة الاف دينار وحصاناً عربيًّا فتركها وانقلب الى الموصل وعزل القاضي ابن شهرزوري واقام بدلاً منه ابا بكر الاربلي . وعلى اثر غلبته هذه تجبّر وتكبّر (٢٧٣) وخلع طاعة السلطان غياث الدين محمد ولم يرسل اليه كالعادة شيئاً ممّا غنمه ممّا حمل السلطان على الارتياب في امره فوجّه اليه الامير مودود وغيره من الامراء في جيش كثيف عام ٥٠٢ للعرب (١١٠٨م) . فلما عرف جاولي حصّن المدينة وترك فيها امرأته وهي اخت برسوق احد اولئك الامراء القادمين الى الموصل واقام محاربين في السور وخرج من المدينة لئلا يحاصر فيها وسار كمن يريد ان يأتي برجال لمساعدته . واخذ معه كذلك بغدوين القمص الفرنجي وكان مأسوراً عنده . وفرض عليه ان يؤدي سبعين الف دينار ويعتق من عنده من الاسرى العرب ويأتي الى نجدته مع الفرنج كلما دعت الحاجة . ثم ارسله الى قلعة جعبر ليقيم فيها ريثما يتم العهود . فاستدعى بغدوين ابن اخته جوسلين وجعله رهينة مكانه وانطلق ليُعدّ الذهب .

اما امرأة جاولي التي ظلّت في الموصل فقد أبهظت الاهالي بالضرائب وسار بعض عَمَلة الجصّ الى برج من ابراج المدينة وأوقعوا صيحةً صاخبةً يقولون : فليحي السلطان الكبير محمد غياث الدين . ثم دخل الامير مودود واصحابه واحتلوا المدينة . وخرجت امرأة جاولي الى اخيها برسوق . وسار جاولي يريد

ايلغازي صاحب نصيبين وماردين وكان يومئذٍ في رعبان قرب الخابور . وافرغ الجهد في اقناعه ليتفق معه فأبى وتركه وتوجّه الى قلعة ماردين . وسار جاولي الى الرحبة وحاصرها سبعين يوماً وبعث في استحضار جوسلين من قلعة جعبر ووشحه بحلةٍ ملكيةٍ واعطاه حصانه ووجّهه الى بغدوين خاله ليسارع في تهيئة الذهب واعتاق الاسرى. ولما وصل جوسلين الى انطاكية دفع الى طنكريت ملكها (٢٧٤) ثلاثين الف دينار ارسلها الى جاولي في مائة اسير عربي رجالاً ونساء من بلد حلب .

وغادر جاولي الرحبة الى الرقّة وحاصرها اياماً كثيرة. وارسل اليه السلطان غياث الدين الامير حُسين بن اتابغ في الطاعة والعودة الى الموصل كالسابق فأبى وانطلق الى بالس وحصرها ودوّخها وغزاها واكثر فيها الدمار . ولما رأى رضوان صاحب سورية ما احدثه جاولي في بلاده ارسل يستنجد طنكريت ملك انطاكية فاقبل اليه في الف وخمسمائة فارس فرنجي وستمائة فارس تركي من اصحاب رضوان عينه. وارسل جاولي كذلك الى بغدوين وجوسلين ليأتيا الى نجدته . فاقبلا وانتشبت المعركة عند تل باشر فانتصر الفرنج واتراك رضوان على الفرنج وعلى اتراك جاولي وطحطحوهم. وهلك الكثيرون من الاتراك في المعمعة . ولم يقتل الفرنج بعضهم بعضاً بل كانوا يكتفون بالقاء الواحد عن ظهر حصانه . وبعد هذا انهزم بغدوين وجوسلين الى تل باشر في بعض اصحاب جاولي وعالجوا الجرحى واعادوهم اليه .

ولمّا خارت عزائم جاولي لم يَرَ وسيلة الّا الاستغاثة ثانية بالسلطان . فبدّل هيئته وغيّر اسمه وسارع في بعض اصحابه من سورية الى خراسان وقطع ثلاثمائة وستين فرسخاً في سبعة عشر يوماً . ولما وصل الى المعسكر قال لحفظة الطرق انا هو جاولي اوجز ان تفضوا بي الى خيمة الامير حُسين وكان قد سبق فعرفه في الرحبة . ثم مضى به حُسين الى السلطان وهو حامل كفنه . فاشفق عليه وصالحه واتخذه لخدمته .

اما بزميش فأخذ امرأة قلج ارسلان من الموصل الى ملطية ونادى بطغرل ارسلان بن قلج ارسلان الفتى سلطاناً (٢٧٥) . وكان هناك اميرٌ ثانٍ اسمه

ارسلان فشرحت عليه امّ الفتى ان يفتك بابنها ويتزوجها . فمتش مشورتها وبالغ في التحكم في الملطيين ليجمعوا له الذهب . ثم اتفقت ام الفتى مع البعض فقبضوا على ارسلان وسجنوه وتبادر الى الظن انهم بطشوا به . لكنهم اطلقوه بعد سنة وارسلوه الى السلطان غياث الدين بخراسان . وهذا ارسل الى ملطية السلطان ملكشاه بن قلج ارسلان ونادوا به ملكاً وخلع طغرل اخاه الصغير وحبس اخويه مسعودًا وعَرَباً .

واقام ملكشاه اعواماً في ملطية يضايقه ابن دنشمند . فسار يريد الكسيس ملك الروم لينجده . فرحب به واجزل له العطاء . ولما عاد وضع له ابن دنشمند كمناء قبضوا عليه واحضروه اليه فسمل عينيه . وعند ذاك اخرج امراء ملطية مسعودًا من السجن ونادوا به سلطاناً . فترك مسعود اخويه عَرَباً وطغرل ارسلان في ملطية وانطلق الى قونية واتخذها عاصمة له .

وفي السنة ١٤٢١ لليونان (١١١٠م) احتل الفرنج طرابلس وانتزعوها من يد العرب بعد حصار استغرق سبع سنوات . وفي القابل سار طنكريت ملك انطاكية في جيش كثيف من الفرنج واستحوذ على حصون كثيرة من العرب وفتك بكل من فيها . وارتحل الى منبج فلم يشاهد فيها احدًا وكذلك في بالس فاحرقها وعاد الى طرابلس ليرعى المواشي الكلاء ويعود .

وامسى عرب سورية في خطر عظيم وتعذّر عليهم مهادنة الفرنج الّا بالذهب فوجه رضوان صاحب حلب الى طنكريت اثنين وثلاثين الف دينار وعشرين حصاناً عربياً واربعين قطعة قماش فاخر . وارسل اليه صاحب صور سبعة الاف (٢٧٦) دينار . وصاحب عسقلان اربعة الاف دينار . وابن منقذ صاحب شيزر اربعة الاف دينار . وعلي الكردي صاحب حماة الفي دينار . وعقدوا الهدنة الى زمان الحصاد فقط على ان يقدموا الغلّة للفرنج .

وفي هذه السنة ضرب الفرنج الجنويون الوفاً كثيرة من العرب القادمين من تنيس ودمياط . واعتقلوا سبعين تاجرًا عربياً وباعوهم بأثمان غالية . وانتزعوا منهم اربعمائة صندوق مملوءة سكرًا مصريًا وخمسين حملًا اقمشةً دمياطيةً وغير ذلك من الامتعة .

ووصل في تلك الفضون من حلب الى بغداد فقيهٌ حلبي يبكي ويندب ما صار اليه العرب بسبب تغلب الفرنج عليهم . فاحتشد الاهالي في المسجد الكبير يوم الجمعة وحطموا المحراب وأبطلوا الصلاة يتذمرون من الخليفة ومن السلطان لانهما يتغاضيان عن مسئلة دينهم . وما ان سمع السلطان حتى هيأ ابا الفتح مسعودًا ابنه والامير مودود في جيش كثيف ووجههما الى الموصل ليستعدّوا لمناوشة الفرنج .

وفي السنة ١٤٢٢ لليونان (١١١١م) انتزع اتابك سلطان ملطية بلد جيحان من الفرنج . وفي السنة عينها زحف الامير مودود صاحب الموصل الى سورية في جيوش ضخمة واحتل في طريقه بعض حصون شيكستان وقتل من فيها من الفرنج . ثم انتهى الى الرها وحاصرها زماناً ولم يتيسر له احتلالها فغادرها الى تل باشر وهي للفرنج ولم يقوَ كذلك على اخذها فغادرها الى حلب . فاغلق رضوان ابوابها في وجهه فتركها واستأنف المسير الى دمشق فخرج الى لقائه الامير طغتكين واعرب له عن اخلاصه . لكنه خاف ان يغدر به ويحتل المدينة فارسل الى الفرنج يهادنهم مزدرياً به .

وفي هذه السنة مات الغزالي (٢٧٧) العلّامة العربي الكبير ودفن في طرسوس قيليقية. وطالما قرّع في تصانيفه العرب بسبب اهتمامهم بالغسل وتطهير الجسد فقط واغماضهم عن تنقية القلب من حيث تنفجر الخطايا. فكان يحثهم على الزهد والعفاف ويورد لهم البراهين الجمة من سير الاباء السيّاح في مؤلفه الضخم ولذا ذكرناه .

وفي السنة ١٤٢٩ لليونان (١١١٣م) خرجت الخاتون امرأة قلج ارسلان سلطان ملطية وسارت الى بلك صاحب قلعة بولا تريد الاقتران به وقالت له : قد سمعتُ السلطان يثني عليك دائماً مصرحاً بانه ليس في امرائه الاتراك احكم واشجع منك لذلك آثرت ان اقدم اليك لتحفظني وتحفظ ابنائي . فلبّى بلك طلبها وعظُم امره لاقترانه بامرأة السلطان . ولما عادت الخاتون الى ملطية طردت اتابك واستقلت هي وابنها بالقلعة . ثم ان رجلًا تركياً كان متولياً حصن زايد فضيق عليه بلك حتى اشتراه منه سلطان ملطية . وما عتم ان

شخص ابن محمود سلطان خراسان وانتزعه منه . وفي هذا الزمان ابدى الملطيون عطفاً جزيلاً فاشتروا من الاتراك اسرى كثيرين من اهالي حصن زايد ومن بلد عرقا واعتقوهم .

وفي السنة ٥٠٧ للعرب وهي السنة ١٤٢٥ لليونان (١١١٤م) توفي طنكريت صاحب انطاكية وخلفه رُجير . وتلاقى مودود في سبعة الاف فارس مع بغدوين وجوسلين في الفي راجل وفارس فقط بناحية طبرية . فانكسر الفرنج وقتل منهم الف وثلاثماية راجل . وعلى اثر ذلك وصلت اليهم نجدة من طرابلس بقيادة سان جيل واقبل كذلك رجير ملك انطاكية في جيشه . وقصد الفرنج جبلاً هناك يُشرف على العرب . واقام الجيشان ستةً وعشرين (٢٧٨) يوماً دون ان يقابل احدهما صاحبه . ثم انحدر الفرنج الى نهر الاردن .

وارتحل العرب الى ضواحي دمشق لان الجوع نهكهم لبعدهم عن مدنهم وتوجه الامير مودود الى المسجد ليصلي يوم الجمعة. ولما انتهى من الصلاة قبض على يد الامير طنتكين وجعلا كلاهما يتأملان في ابنيته العجيبة . وحين ذاك اندس اليهما رجل اسمعيلي وضرب مودود بالسكين اربع ضربات فحملوه الى دار طنتكين وتوفي هناك. ثم وثب عبيد مودود على الجاني وقطعوه إرباً إرباً. وظن البعض ان رضوان صاحب حلب هو الذي بعث الاسمعيلي ليقتله وقال البعض الاخر ان طنتكين نفسه هو الذي اعدّ القاتل وكان محبوساً لديه بسبب شروره ووعده بجائزة ان اجهز عليه اذ كان يتخوف ان يحتل مدينته . وعلى اثر قتله خلفه في القيادة الامير آقسنقر برسوق . وهذا كرّ على الرها وحاصرها شهرين في خمسة عشر الف جندي .

وكان الفرنج في السنة ٥٠٨ للعرب (١١١٥م) يواصلون الخروج من الرها ويجهزون على العرب . وقبضوا ذات مرة على احد عشر عربياً واستاقوهم الى المدينة وبتروا ايديهم وارجلهم وعلّقوا جثثهم على السور تجاه الاتراك . فسخط آقسنقور واجهز على خمسين اسيراً فرنجياً. ولما اشتد الجوع على الاتراك غادروا الرها الى سميساط وكانت امرأة كوغ باسيل الارمني متولية امرها وامر وعش والكيسوم ورعبان. وقد عاملت الرعية بالحسنى بعد وفاة زوجها وحشدت

جيشاً ضخماً من خيّالة ورجّالة وجعلت تدفع لكل خيّال اثني عشر ديناراً ذهباً ولكل راجل ثلاثة دنانير .

اما حكومة الارمن آنئذ فكانت على هذه الصورة . ذلك ان اليونان لمّا اشتد ساعدهم استرجعوا بعض بلادهم من العرب (٢٧٩) ولكنهم لم يتيسر لهم ان يناهضوا الاتراك بل ظلوا في داخل بلادهم واتخذوا الارمن عملاء لهم . فتحصنوا في الجبال وفي الاماكن الحريزة . فكان الاخوان إبنا قسطنطين ابن روفين في قيليقية . وميخائيل واوهنيس في جرجر وبيت بولا . وكوغ باسيل اعني السارق في الكيسوم ورعبان وبيت حسنة وروسي قلعة . وقسطنطين وتيتوغ وبيستفور ابناء سنبل في كورة سميساط وهؤلاء كانوا سرياناً انضموا الى كوغ باسيل والى باسيل الفتى الذي ربّته امرأة كوغ باسيل وكان يديرها كرديك الشرير مبغض السريان . فهو الذي اغتصب ديرهم المعروف بالدير الاحمر بجوار الكيسوم ووهبه لغريغوريوس جاثليق الارمن وحوّل خمسة اديارهم التي في بيت قنايا بجبل زابار الى قرى . وطرد رهبان دير عرنيش واقام فيه جنوداً وحراساً وضغط على رهبانه حتى استترف منهم الفي دينار .

وظلّ طنكريت ملك انطاكية يحاصر الكيسوم سنتين حتى اخذها . وكان كرديك المذكور آنفاً داهية حيّالاً لم يتمكّن الفرنج من التغلب عليه حتى استمالوه اليهم وزفروا اليه كلاماري الفرنجية اسوة بالفلسطينيين وشمشون وهي التي سقته السم وقتلته .

اما امرأة كوغ باسيل فلمّا رأت الجيش التركي يعيث ببلدها ارسلت الى آقسنقور امير الخابور ولاطفته ووعدته بالمساعدة . فوجه اليها سنقور دزار الطويل بثابة سفير . وسبقت فاستوت على العرش الملكي واقامت حواليها الفتيات جواريها رافلات بالحلي والحلل . فدخل سنقور وجلس على كرسي تجاهها واخذت تحادثه حديثاً لطيفاً ممزوجاً بالدهاء وقالت له : مُر جيوشك المقيمين في الخيام ان يدخلوا المدينة (٢٨٠) ولا يبيتوا خارجاً فقد اخبرني جواسيسي ان الفرنج مستعدون للهجوم . غير ان سنقور لم يعبأ بكلامها وظل متنطرفاً متغطرساً حتى انقض سبعمائة فارس فرنجي واجهزوا على اصحابه الاتراك ولم يفلت منهم الا القليل اليسير . وبعد هذا اعادته الى الامير آقسنقور في تحف وهدايا فسار الى

سروج وحصرها خمسة ايام وافنى عساكره زروعها وغلالها . ثم انطلق الى شبكان واعدّ هناك وليمةً فاخرةً وجاء اليه من حرّان الملك مسعود ابن السلطان إذ كان باقياً هناك ولم يذهب مع مودود . وبعد هذا اعتقل سنقور اياز بن ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين . وغزا بلده .

وفي ٢٩ تشرين الثاني من السنة ١٤٢٦ لليونان (١١١٥م) و٢٩ من الشهر السادس العربي حدثت زلزلة عنيفة جدًّا اجتاحت مرعش برمّتها وامست مقبرة لاهلها . وسقطت دور كثيرة في سميساط وقتل فيها قسطنطين صاحب جرجر مع كثيرين . وسقط من سور الرها ثلاثة عشر برجاً وقسم من سور حرّان ومائة دار في بالس ونصف قلعتها . وقوّضت في الكيسوم كنيسة مار يوحنا وكنيسة الاربعين شهيدًا ثم تجدّد بنيانها بمساعي السيد ديونيسيوس اسقفها .

وفي السنة ٥٠٩ للعرب وهي السنة ١٤٢٧ لليونان (١١١٦م) انقضّ رجير صاحب انطاكية في خمسمائة فارس على الامير آقسنقور ما بين حلب والمعرّة . فانهزم مع زنكي اخيه الى احد التلال وواصل الفرنج فتكهم بالجيش التركي وغزوا من معهم من التجار والسوقة . وفرّ آقسنقور واخوه مع عدد قليل . فتتبعهم الفرنج نحو فرسخ ولم يدركوهم فعادوا واعتقلوا ثلاثة الاف تركي وحطموا صناديقهم واعمدة خيامهم واضرموا فيها (٢٨١) النيران . واحرقوا الصبيان والشيوخ الضعفا . غير القادرين على العمل . واستاقوا البقية الى انطاكية

وفي السنة ٥١٠ للعرب (١١١٧م) مات السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه في اصفهان وخلفه ابنه السلطان محمود . ومات كذلك الخليفة المستظهر في بغداد وخلفه ابنه المسترشد الصغير . وفي آب السنة عينها مات الكسيس ملك اليونان وكان حكيماً شجاعاً حافظ برصانته على عاصمته ولم يدع الفرنج ان يدخلوها . وخلفه ابنه ايوني فغدر به اخوه واخته وأمه ولم يستتب له الملك الّا بعد ما نفى اخاه واخته وقص شعر امه واقامها في الدير . وفي هذه السنة كذلك مات صاحب مصر وصاحب غزنة . وبعد قليل قُتل رجير صاحب انطاكية . ففي هاتين السنتين توفي ثلاثة عشر ملكاً سبقت وفاتهم الزلزلة الهائلة كما ذكرنا .

(له صلة)